

أهمهم الفكر في عصر المروء الصليبي :

## عز الدين بن عبد السلام

٥٧٧ - ٦٦٠ هـ

الأستاذ أحمد أحمد بدوي



نشأ في شظف من العيش ، ورفقته تنافته إلى أن أصبح يتنادى الملوك بأسمائهم ، ولم يُسمِّه المجد عن الحق ، فنادى على روس الأتهداد بخطئه يوم بان خطؤه ، ولم يدعه حب السيطرة والسلطان إلى النزول عن كرامته أو الرجوع عن معتقده ، ولم تهياً له وسائل الثقافة سفيراً ، واسكنه جد حتى صار أستاذ عصره وأعلم أهل زمانه .

ولد بدمشق حيث نفعه على نخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين بن الحرسستاني ، وقرأ الأصول على سيف الدين الأيدي ، وأخذ الحديث عن القاسم بن عساكر ، ودرس النحو ، ورحل إلى بغداد ، فأقام بها أشهراً . ونبغ المز في أصول الفقه ، وأصول الدين ، والتفسير ، وبرع في الفقه حتى صار أعلم أهل عصره فيه ، قالوا : وانتهى به الأمر إلى مرتبة الاجتهاد فصار يفتي بما يؤدي إليه اجتهاده ؛ وكان موافقاً سديداً في فتاويه .

ولى في دمشق خطابة الجامع الأموي والإمامة فيه ؛ قال أبو شامة أحد تلامذته : « وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة » ؛ فأبطل صلافي الرغائب ونصف شعبان ، وفي طبقات الشافعية للسبكي ( ج ٥ ص ١٠٥ ) نص فتواه في تلك الصلاة ، وبيان الأسباب التي حملته على القول بإبطالها . وما كان عز الدين يسجع في خطابته ، بل بقولها مترسلاً ، واجتنب فيها التناء على الملوك ، واستماض عن ذلك بالدعاء لهم .

ودرس عز الدين بالزاوية الفزالية بجامع دمشق ، حيث قصده الطلبة من الآفاق ، يقتبسون منه ويأخذون عنه ، وارتفعت مكانته حتى راسله بعض ملوك عصره وأحبوا لقاءه ؛ فهذا الناصر داود بن المعظم عيسى يرسل إليه قصيدة يحزن فيها على ما أصاب الإسلام عندما أغارت الفرنج على نابلس ويقول له فيها :

أبليت أمي أيم طول عمرها فلم يقضها رب لولي ولا بعل  
ويا ليتها لما قضاها لسيد لبيب أديب طيب الفرع والأصل  
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا فما بشرت يوماً بأنني ولا خل  
ويا ليتها لما عدت بي حاملا أصيبت بما ضمت عليه من الحل  
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت تشد إلى الشدقيات بالرحل  
لحقت بأسلافك فكنت ضجيجهم ولم أرفي الإسلام ما فيه من خل  
وكان الأشراف موسى بلهج بذكرك ، ويؤثر الاجتماع به ،

وقد دار بينهما نقاش انتهى باقتناع الأشراف برأي عز الدين وعقيدته ، وغرامه بكتبه وتأليفه ، ودعوة الناس إلى قراءتها والعمل بفتاويه . فلما مرض الأشراف مرض الموت أرسل إلى العزيز يستزيه فجاء إليه ، فلما استنصحه الأشراف نصحه العزيز بأن يولى وجهه إلى حرب التتار ، لا إلى حرب أخيه الكامل ، وكانت جفوة قد حدثت بينهما ، فقبل الأشراف نصيحته واستزاده ، فطلب منه العزيز أن يرسل إلى نوابه بحرم عليهم شرب الخمر والقنق وفرض ضرائب على المسلمين ، فأطاع أمره . ثم أمر له الأشراف بألف دينار ، فردها قائلاً : « هذه اجتهاد لله لا أكرها بشيء من أمور الدنيا » ؛ وعندما ملك الكامل دمشق ، وكانت الصلة بينهما وثق ، وثقة الكامل فيه عظيمة ، ولاء قضاء دمشق بعد ما اشترط عليه عز الدين شروطاً كثيرة قبلها الكامل . فلما ملك الصالح اسماعيل دمشق ، وصمد نجم الدين أيوب إلى عرش مصر خان الصالح اسماعيل خوفاً منه المنام والطعام والشراب ، وصالح الفرنج على أن ينجدوه على الصالح أيوب ، ويسلم إليهم صيدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين . ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين ، فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة ، وعلى التدبئين من يائس السلاح ، واستفتوا الشيخ في بيع الفرنج السلاح ؛ فقال : « يحرم عليكم البيع لهم ؛ لأنكم متحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين » ؛ ويظهر أن عز الدين قد أثاره هذا الأمر ، فنال من الصالح اسماعيل على المنبر ولم يدع له ، وجدد دعوته على المنبر ، وكان يدعو إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تمز فيه وليك ، ونذل فيه عدوك ، وبمعل فيه بطاعتك ، وينهى فيه من

الحائنة . قال الباجي : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي كيف الحال ؟ فقال : يا بني ، رأيت في تلك العظيمة ، فأردت أن أهميته لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذبه ؛ فقلت : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : « والله يا بني ، استحضرت هيئة الله تعالى ، فصار السلطان قدامى كالمقط » . وحدث أن استاذ دار الصالح وهو نجر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ عماد إلى مسجد بعصر فعمل على ظهره بناء لطبل خانة ، وظلت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين أمر بهدم ذلك البناء ، ومضى يجماعته وهدمه ، وعلم أن السلطان والوزير يفضبان ، فأسقط عدائة الوزير ، وعزل نفسه من القضاء . فمطم ذلك على السلطان ، وقيل له : اعزله عن الخطابة ، والإشيع عليك على النهر كما فعل في دمشق فمزله . وقد أمضى الخليفة المستعصم ببغداد حكم عز الدين في نجر الدين ، فلم يقبل رسالة عن السلطان كان راويها للرسول استاذ الدار .

أقام عز الدين في منزله يشتمل عليه الناس ، ويدرس ، وأخذ في التفسير في دروسه ، حتى إذا بنى السلطان المدرسة الصالحية فوض أمر تدريس الشافعية بها إلى عز الدين . وكان العز مع الفقهاء الذين قدموا على المظم نوران شاه ، وناظرهم السلطان ، وشهد معركة المنصورة سنة ٦٤٨ مجاهداً في سبيل الله ، ولم يزل صرعى للكرامة في عصر السلاطين ، يعتمدون عليه ويستشبرونه ، وبأخذون برأيه ، ومن ذلك أن التتر عندما هاجوا البلاد الإسلامية جمع المظفر قطز القضاء والفقهاء والأعيان لشاررتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار ، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضروا في دار السلطنة بقلعة الجبل ، وحضر الشيخ عز الدين والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية ، وغيرهما من العلماء وأفاضوا في الحديث ، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام . وخلاصة ما قال أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الترية ما تستميون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء . وتنبهوا ما لكم من الأدوات المذهبة والآلات النفيسة ، وبقصر الجند على مسكوبهم وسلاحهم ، ويتسارواهم والعامية . وأما أخذ الأموال من العامة

معميتك » ؛ والناس يبتلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، والنصر على أعداء الله المحمدين ، فعلم السلطان بذلك ، فأصدر أمره بعزل الشيخ واعتقاله ، فبقي مدة معتقلاً ، ثم أطلقه على أن يبادر بلاده ، فخرج عبد العزيز من دمشق ؛ ثم بدا للصالح اسماعيل أن يعيده ، فأرسل خلفه رسولا أخذ برسوسه ، ويبلغ له القول ، وقال له : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » ؛ فقال : والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاء عن أن أقبل يده . يا قوم ، أنتم في واد وأنا في واد ، والحد لله الذي عاقني مما ابتلاكم به » . وبينما هو في طريقه إلى مصر صر بالكرك ؛ فسأله صاحبها الإقامة عنده ، فرأى المز أن الانتفاع به سيكون محدوداً في مثل هذه المدينة ، فقال له : بلدك صغير على علمي ، ومضى إلى مصر فقدمها سنة ٦٣٩ ، واستقبله علماءها بالإجلال والإكبار ، وبالغ عبد العظيم المنذرى حافظ مصر في الأدب معه ، وامتنع من الفتيا لأجله ، وقال : كنا نفنى قبل حضوره ، أما بعد مجيئه فنصب الفتيا متمين فيه . وتلقاه الصالح أبوب عدو الصالح اسماعيل خير لقاء وأكرمه ؛ وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر والقضاء بها وبالوجه القبلي ، وقوض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، فقام بالنصب أتم قيام ، وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يخاف في الله لومة لائم . وكان يسلك في الإرشاد طريقاً عنيقاً . قال تلميذه الباجي : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد المسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس الملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته ، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : « يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : أم أبوي . لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمر ؟ » فقال : « هل جرى هذا ؟ » فقال : « نعم ، الحائنة الفلانية يباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه الملكة ؟ » يناديه كذلك بأعلى صوته ، والجند واقفون ، فقال : يا سيدي ، هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ، فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة . فرسم السلطان بإبطال تلك

رقم ٧٧ م تفسير) وأخرى دعاها كشف الإشكالات عن بعض الآيات، وهي أجوبة عن أسئلة مشكلة في آيات من القرآن الكريم (مخطوطة بدار الكتب رقم ٨٣٦ تفسير)

واختصر في الحديث صحيح مسلم.

ووضع في علوم الكلام كتاب الفرق بين الإيمان والإسلام،

وكتاب بداية السؤل في تفضيل الرسول.

وفي التصوف - وكانت له بد طولى فيه - آلف بيان أحوال الناس يوم القيامة، وفوائد البلوى والمحن، وكتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز تكلم فيه عن بعض أحداث وألفاظ من كلام القوم، وكتاب مسائل الطريقة في علم الحقيقة.

ولم يترك عن الدين كتباً فخرية، ولكنه ترك تلاميذ صاروا من أعلام الأئمة، ومن نوابغ العلماء، نذكر منهم ابن دقيق العيد، وهو الذي لقب أستاذه بسلطان العلماء، وعلاء الدين الباجي، والحافظ الدمياطي والدشتاوي، وعبدة الله القفطي.

أما أخلاقه فإظهاها الصلاة في الحق والجهل به، يحاسب غيره عليه ويحاسب نفسه، ولا يمنه من الرجوع إلى الحق الخوف من أن يقال خطأ؛ فقد أفتى صرة بشي، ثم ظهر أنه أخطأ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له ابن عبد السلام بكذا، فلا يعمل به فإنه خطأ. قالوا: وكان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنادرة والشمر يستشهد به، وإن كان لم يقل من الشمر سوى بيت واحد هو:

لو كان فيهم من عراه غرام ما عفتوني في هواه ولا مواء  
قالوا: إنه أنشده لطلبته، وقال لهم: أجزوه فقال عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني:

لكم جهلوا لفاذة حسنه وعلمتها لما مهرت وناموا  
وأنشده قصيدة طويلة منها:

مولاي عز الدين عز بك الملا نخرأ فدون ذلك فيه الهام  
لما رأينا منك علماً لم يكن في الدرس فلنا: إنه إلهام  
وأخرها:

جاوزت حدّ الدح حتى لم يطق نظماً لفضلك في الوري نظام  
فعليك يا عبد العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلام  
كما مدحه الجزار بقصيدة أولها:

مع بقايا في أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا .  
وكان الظاهر يبرس بمظلمه ، ويقف عند أقواله وفتاويه ،  
وأقام الخليفة بمد استشارته ، وبما يدل على منزلته الرقيقة أن  
الظاهر لم يبايع المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه عز الدين  
ثم تلاه السلطان ثم القضاة (١) .

وفي عهد الظاهر يبرس في ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٦٠ مات عز الدين بعد أكثر من عشرين عاماً قضاها في مصر محيط به الإكبار والإجلال . ويقال : إن السلطان أرسل إليه لما مرض ، وقال له : عين مناصبك إن تريد من أولادك ، فقال عز الدين : ما فهم من يصلح ، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه . وشهد الظاهر يبرس جنازته ، وصلى عليه ، وحضر دفنه ، كما شيمه الأسراء والحامسة والأجناد وطبقات الشعب . وبما يدل على ما وصل إليه عز الدين من النفوذ ما يروى من أنه لما صرّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : الآن استقر أمرى في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو أمر الناس في بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره .

ولمزمّ الدين بن عبد السلام مؤلفات في الفقه والتفسير والحديث وعلوم الكلام والتصوف .

وفي الفقه له كتاب القواعد الكبرى الذي قال عنه تاج التراجم : ليس لأحد مثله . وقال عنه السبكي : هذا الكتاب وكتاب بجاز القرآن شاهدان بإمامته وعظيم منزلته في علوم الشريعة . واختصر القواعد الكبرى في قواعد صغرى . وله في الفقه أيضاً كتاب الفاية في اختصار النهاية . وكتاب الإمام في أدلة الأحكام ، والفتاوى الموسلية ، والفتاوى المصرية ، وهي مجموع مشتمل على فنون من المسائل والفوائد .

وله في التفسير كتاب سماه بحار القرآن ( بدار الكتب رقم ٣٢ تفسير ) ورسالة تسمى فوائد العزيز بن عبد السلام وهي أسئلة وأجوبة متعلقة بالقرآن الكريم ( مخطوطة بدار الكتب

(١) هكذا في طبقات الناصبية ، وفي نجوم الزاهرة ( ص ٧٠ من ١١٠ ) أن أول من بايع الخليفة قاضي القضاة عبد الوهاب ابن بنت الأخر ثم السلطان ثم عز الدين بن عبد السلام ثم الأسراء والوزراء على سائرهم .